

المقدمة

حين فكرت بمتابعة دراستي وتحصيلي العلمي في قسم الدراسات العليا بجامعة دمشق، كان الذي يشغل تفكيري دائماً هو الموضوع الذي سيكون مجال بحثي. هذا الهاجس الذي يشغل فكر كل طالب علم وهو يبدأ بأول خطوة في مشوار لا نهاية له. فالعلم هو البحر الذي لا ينضب معينه. الأمر الوحيد الذي كان مستقراً في فكري هو أن يكون بحثي في مجال تاريخ العصر الجاهلي، لأن هذه الحقبة مرحلة أساسية وهامة في تاريخ العرب، وتطورهم الصاعد، فقد شكلت بداية حركة التاريخ التي تكونت فيها الأصول التاريخية للأشكال التي عبر بها سكان الجزيرة العربية عن تصوراتهم لظواهرات الكون والطبيعة، وعن علاقاتهم الاجتماعية، وأوضاع حياتهم وبالوقت نفسه تطلع المؤرخ أو الباحث في كتابة تاريخ العرب العام على إنجازات أهل الجاهلية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية التي مهدت لتطور العرب اللاحق.

وقد تهيئ بعض الباحثين الخوض في حقبة الجاهلية⁽¹⁾ لبعدها غورها ووعورة مسالكها وضآلة الأضواء الكاشفة المسلطة على بعض جوانبها المعتمدة نتيجة قلة الآثار والمصادر ولعرقلة الصغارى لجهود علماء الآثار والباحثين.

فترة الجاهلية "اضعف قسم كتبه المؤرخون العرب في تاريخ العرب يعوزه التحقيق والتدقيق والغريلة. وأكثر ما ذكروه أن تاريخ هذه الحقبة هو أساطير، وقصص شعبي، وأخبار أخذت عن أهل الكتاب ولا سيما اليهود، وأشياء وضعها الوضاعون في الاسلام لمآرب اقتضتها العواطف والمؤثرات الخاصة"⁽²⁾ وظل الناس يتداولون هذه الأخبار على أنها تاريخ الجاهلية حتى انتهت إلى المستشرقين، فتناولوها

(1) زيدان: العرب قبل الاسلام ص8

(2) جواد: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ج 1 ص 42

بالنقد استنادا إلى طرق البحث ومناهجه الحديثة، وتفتحت بذلك آفاق واسعة في عالم التاريخ الجاهلي لم تكن معروفة⁽³⁾ وقد دفعني هذا النقص إلى توجيه عنايتي لدراسة هذا التاريخ، وتعددت المواضيع أمامي، فأبحرت وألقيت مرساتي على شاطئ الحجاز، لأدرس الحياة الاجتماعية فيه قبل الإسلام (القرن السادس)؛ باعتباره منطلقا للدعوة الإسلامية. ومقرا للدولة العربية الإسلامية في عقودها الأولى، وحيث سيكون لهاتين الخاصتين أثر كبير على مجرى التطورات السياسية الهامة ليس في الحجاز فحسب ولكن في الأمصار خلال القرن الهجري الأول.

وتجولت على أرضه البكر جامعة كل معلومة قيلت عن هذه الفترة، لأخرج بدراسة متواضعة أو بمحاولة لتناول هذا الموضوع بالدراسة والتحليل لأتعرف على العلاقات التي كانت قائمة بين أفراد المجتمع في كل مظاهر حياتهم اليومية، ولأتطلع على ما انبثق عن هذه العلاقات من مؤسسات مختلفة وعند مبلغ علمي أنه لم يسبق أن بحث هذا الموضوع بشكل واف ومستقل، فكل ما كتب فيه، أوقيل عنه مقدمات، ومقالات متناثرة هنا وهناك في بطون الكتب، بل إن هذا الموضوع في العصر الجاهلي من الوجهة التاريخية مازال يكتنفه غموض واضطراب، ولم يأخذ حقه الكافي من البحث والدراسة كبقية الموضوعات، فجميع من كتب لم يتعرض للحياة العامة، ولم يدرس أحوال المجتمعات، وليس هذا بعجب. إذ كان منزع المؤرخين جميعا العناية بالملوك والقادة، والوقائع والثورات والفتوح ولا يكادون يحفلون بالجماعات والعادات والأخلاق والنظم⁰ فمن البديهي إننا لا نظفر ببحث عن الحياة الاجتماعية أفردته أي من المؤرخين، وبذلك حرمت هذه الناحية من البحث الدقيق واكتفى بعضهم بالإشارة إلى ذلك.

ولعل مشروع بحثي هذا يكون خطوة البداية على طريق أتمنى أن يتابعه كل من يهيمه هذا الميدان.

ماضي الأمة هو الجذور الثابتة، وشجرة بلا جذور لا تقاوم تحديات الطبيعة فكيف نسلخ عن ماضيها الذي يعني استمرار وجودنا ؟ وكيف نتجاهله ونحن جزء

(3) علي: المفضل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج 1 ص 42 0

منه ؟ والعالم كله منذهل أمام إشراقه، ولم يتطور إلا من عطاءاته، فماضينا هوتراثنا، والامة التي تطرح تراثها هي كمن ينتحر سواء بسواء، ذلك لان التراث هو روح سارية في كيان الامة عبر العصور والأجيال، انه الثابت التي تميز ملامح الامة عن سواها.

إن الاهتمام بالماضي لايعني العودة إلى عصوره ولا إلى نظم تلك العصور، بل إن هذه العودة هي إحدى المستحيلات ولا يعني أيضا مجال الفخر العنصري به، بل كل ما يعنيه التزود من النبع لمواصلة السير إلى الأمام بحيث يصبح زادا صالحا وضروريا لشحن وجدان الامة بالكبرياء المشروعة التي تعين الأجيال الحاضرة على مواجهة ما يعترض حياتها من تحديات.

أن النهضة التي يعيشها الغرب اليوم هي نتاج وعي وعودة أممه لماضيها وتراثها وعودتها هذه كانت عن طريقنا، فأجدادنا هم الذين حفظوا تراث الأمم وطوروه وأضافوا الجديد، وقدموا للعالم حضارة لا يستطيع إلا أن يعترف بفضلها.

سلكت السبيل إلى غاياتي منقبة في أشقات المصادر والمراجع وكتب الاجتماع والأدب والشعر، وأمّهات معاجم اللغة وغير ذلك.. وقد كان نهجي أن أقدم الحادث، وأتعرف على النواحي الاجتماعية المتعلقة به لأقدم تفسيراً لذلك حين أجد إلى ذلك سبيلاً، إيماناً مني بأن التاريخ ليس سلسلة من الأحداث يأخذ بعضها برقاب بعض دونما مسوغ أو مسبب ولا ينظمها ناظم.

فكم من كتب سكبت نور عيني على صفحاتها لأجتنى منها ثمرة لا تكافئ بعض ما بذلت، وكم من كتب عبرتها من المنبع إلى المصب أجوس خلالها وأجوب ما بين ضفافها في يقظة ولم يعلق منها بشباكي صيد.

لكن المشقات التي كانت تعترضني في الإعداد، والصعوبات التي احتملتها في التققيب، كل هذه لا مندوحة عنها لمن يتصدى للبحث، فيصبر ويغالب، ويدأب ويثابر ليخط في سجل المعرفة سطرا يلبي به رغبة، أو يقضي به حقا، أو ينال به ذكرا. وإن كان في هذا البحث عيب اونقص فأنا مسؤولة عنه رغم أن ذلك يعود إلى أن المصادر والمراجع لم توجهني إليه، انه جهد لم يبلغ مداه واللّه من وراء القصد.

وقد قسمت بحثي إلى مقدمة تتضمن أسباب تهيب بعض الباحثين الخوض في حقبة الجاهلية مع أهمية هذه الحقبة، وأسباب اختيار الموضوع والصعوبات التي عانيت بها أثناء جمع المواد والإعداد. اتبعتها بدراسة لفصول البحث وهي تتألف من خمسة فصول:

الفصل الأول: الحجاز

ظل الحجاز كمصطلح جغرافي غير ثابت الحدود فترة من الزمن إلى أن أخذ ملامحه المستقلة لدى الجغرافيين العرب وأصبح التعريف المبدئي له بأنه الجبال الحاجرة بين الأرض العالية نجد وبين الساحل الواسع تهامة⁽⁴⁾ يبلغ طوله من الشمال إلى الجنوب حوالي 700 ميل وعرضه من الشرق إلى الغرب 250 ميل⁽⁵⁾، متفاوت الارتفاع تخترقه أودية قلما يجري الماء بها ولها اتجاهان أحدهما نحو البحر الأحمر والثاني نحو نجد. امطاره شتوية قليلة، وأن هطلت شكلت سيولاً خطيرة⁽⁶⁾، وقد انعكس هذا الوضع التضاريسي بشكل طبيعي على حياة السكان الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، فسمحت بقيام مجتمع زراعي بالطائف⁽⁷⁾ معوضة الحرمان الذي عانت منه مكة فهي في واد غير ذي زرع⁽⁸⁾، وحوّلها إلى حاضرة تجارية بينما اعتمدت يثرب على عدة مصادر في طبيعتها الزراعة وبعض الحرف الصناعية⁽⁹⁾. وصار الانتاج اجتماعياً بضاعياً أي للمبادلة وليس لسد الحاجات الضرورية. ونشأت الأسواق وتزامنت مع موسم الحج فتعددت فيها الأغراض وظهرت الملكية الخاصة وانقسم المجتمع إلى أحرار وعبيد وفئات متميزة عن بعضها في الثروة

(4) ياقوت: معجم البلدان مادة الحجاز - البغدادى السويدي سبائك الذهب ص 16.

(5) وهبة: جزيرة العرب في القرن العشرين ط3 ص 14.

(6) الأزرقى: أخبار مكة ج2 ص 166، 167. الفاسي: شفاء الغرام ج2 ص 560.

(7) الحموي: معجم البلدان مادة طائف.

(8) سورة ابراهيم: الآية 37

(9) بيضون: الحجاز والدولة الاسلامية ص 34.

والحقوق وتضامنت الفئات مع بعضها على أساس المصلحة الاقتصادية المشتركة لا على أساس صلة الدم والنسب.

الفصل الثاني: القبيلة:

قام التنظيم الاجتماعي لدى البدو والحضر على نظام القبيلة. وقد استعملت كلمة قبيلة بالمعنى العام الاصطلاحي لأنها اسم خاص لأحد أقسام المجتمع في العصر الجاهلي غلب على الأقسام الأخرى، فهناك ما هو أصغر وهناك ما هو أكبر وهي بالترتيب⁽¹⁰⁾

الجدم - الجماهير - الشعوب - القبائل - العماثر - البطون - الأفخاذ - العشائر - الفصائل - الأرهاط.

وقد ظهر النظام القبلي متأخراً عندما اضطرت العشائر إلى أن تزدلف بعضها إلى بعض لضرورة حربية أو لأغراض اقتصادية، وفي بعض الأحيان كان يفضي الزحام أو الصدام إلى انضمام شراذم أخرى غريبة إلى القبيلة، ثم تصبح هذه الشراذم من جسم القبيلة⁽¹¹⁾. ولعلمهم لم يحددوا الشروط في الحد الأدنى أو الحد الأكبر للقبيلة وذلك من ناحية عدد العشائر والبطون والأفخاذ.

أطلقوا على كل قبيلة لقباً أشار إلى صفة لها تميزها عن غيرها من القبائل كالأرحى والجمرة والجمجمة والأثافي والرضفات وسميت بعض القبائل باسم المكان الذي أقامت به أو العمل الذي قامت به فذهب هذا سمة لها. مما يدل على أنه ارتبط ظهور هذه القبائل بعوامل متعددة بيئية ديموغرافية سياسية اقتصادية.

والجدير بالذكر أن كل قبيلة ضمت إليها عناصر متعددة وفئات مختلفة فأبنائها الصرخاء هم الفئة الممتازة التي لها الصدارة في القبيلة والمركز المرموق ثم الموالى والرقيق والمستلحقون والأدعياء - والخلعاء والصعاليك أضف إلى ذلك ارتباط البعض بالقبيلة برابطة الحلف والجوار والمواخاة.

(10) النويري: نهاية الأرب ج2 ص 277 وما بعد، جمعة: النظم الاجتماعية ص 9.

(11) حداد: حياة الهيئة الاجتماعية وتطورها ص 257.

ومن خلال دراسة هؤلاء وأوضاعهم اتضح أن المكانة الاجتماعية للفرد تتعلق بنسبة أضاف إلى ذلك ثراء المادي، وتبين أيضاً أن محور القرابة عند العرب في عصر ما قبل الاسلام كانت قائمة على الأدعاء فالولد نفسه لا يلحق بأبيه إلا إذا رضي أن يلتحق به. ولم يكن رضاه هذا ملزماً به إلى الأبد بل يحق له أن يخرج من يشاء من أفراد أسرته ممن سبق له الاعتراف بهم فيصبح هذا غريباً عن القبيلة لأن نظام القبيلة سار آنذاك على مجرد اصطلاحات اجتماعية لا وفقاً لما تمليه الغرائز أو توحى به الميول الفطرية أو تحدده صلة الدم.

الفصل الثالث: عادات وأعراف قبلية.

الأعراف عبارة عن قوانين ناضمة للأوضاع القبلية، ودعامة للحياة السياسية، وأساس الحياة الاقتصادية، وقد كان للبيئة الطبيعية والظروف التي أحاطت بالقبائل العربية أثر في خلقها، فباعتبار أن البيئة التي عاشوا فيها قاسية فقد كان الكرم عندهم لا يقف عند حد، وهو انعكاس لشدة الجوع الذي عانى منه المجتمع. وكانت الشجاعة تطبيقاً لحاجات الوسط الطبيعية والاجتماعية وركناً من أركانها.

ومما كان يرفع من القدر، ويزيد من المكانة والشرف العفة والوفاء بالعهد. فكل ذلك من شروط السيادة.

أضاف إلى ذلك نشوء قانون عري بين أفراد القبيلة ينحصر في كلمة العصبية وهي تعني أن يدعوا الرجل إلى نصرة عصبته، والوقوف إلى جانبهم ظالمين كانوا أو مظلومين⁽¹²⁾.

والجدير بالذكر أنه بتطور القوى المنتجة، وتلاشي الملكية الجماعية وظهور الملكية الخاصة تفسخت العصبية إلى عصبيات وبدت بمظاهر متعددة أثرت في عدم الاستقرار وانقسام المجتمع إلى كيانات صغيرة.

(12) الميداني: مجمع الأمثال ج 2 ص 334

الفصل الرابع: الأسرة.

تضمن هذا الفصل البحث عن نشأة الأسرة وأنواع الزواج التي عرفها المجتمع الحجازي قبل الإسلام، وهي تتلخص في قول عائشة رضي الله عنها فقد حدث البخاري عنها قولها:

(كان النكاح في الجاهلية على أربعة أنحاء فنكاح منها نكاح الناس اليوم، يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته فيصدقها ثم ينكحها، ونكاح آخر كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمئتها: أرسلني إلى فلان فاستبضعي منه. ويعتزلها زوجها حتى يتبين حملها، فإذا تبين أصابها إذا أحب وإنما يفعل ذلك طمعاً بنجاة الولد، ويسمى هذا النكاح الاستبضاع، ونكاح آخر يجتمع الرهط مادون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها، فإذا حملت ووضعت ومراً عليها عدة ليال، أرسلت إليهم فلا يستطيع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، تقول لهم: قد عرفتم ما كان من أمركم. وقد ولدت فهو ابنك يا فلان، تسمي من أحبت باسمه فيلحق به ولدها، لا يستطيع أن يمتنع منه الرجل ونكاح رابع يجتمع ناس كثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها وهن البغايا ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً، فمن أرادهن دخل عليهن. فإذا حملت أحدهن ووضعت جمعوا لها القافة⁽¹³⁾ ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون فالقاط به أي (التصق) ودعي ابنه لا يمتنع من ذلك، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم بالحق هدم نكاح الجاهلية إلا نكاح الناس اليوم⁽¹⁴⁾.

ولعلهم جمعوا بين الأختين وتزوجوا امرأة الأب، ولم يحددوا سناً معيناً للزواج. ومثلما كان الزواج عندهم سهلاً يسيراً فالطلاق أسهل وعلى أنواع: كالطلاق ثلاثاً على التفرقة، و الخلع والظهار والإيلاء.

والجدير بالذكر أنهم رغبوا في الحمل والولادة واهتموا بالارضاع وسَمَوْا أولادهم بأسماء تعكس الحالة الطبيعية التي كانوا يعيشون فيها فاختلفت أسماء سكان

(13) القافة: جمع قائف الذي يعرف الأثر. ويعرف شبه الرجل بأخيه وأبيه لسان العرب مادة قوف.

(14) صحيح البخاري، ج5 ص 1967

الحواضر عن أسماء سكان البوادي. وكانوا يؤثرون البنين على البنات ولا يورثونهن ويخصون بذلك المقاتلة دون الذرية⁽¹⁵⁾. إى أن ذلك لم يكن قاعدة عامة فالمرأة كانت ترث ولكن بالمقابل كانوا يحرمونها حقها في الأثر بغياً وعدواناً.

الفصل الخامس - المناسبات

احتوت المناسبات فقرتين الأولى عن الأفراح والثانية عن الأحزان. اشتملت الأفراح على الحج حيث كان يجتمع الناس من كل حذب وصوب معبرين عن فرحتهم باللقاء الديني الاجتماعي فيؤدون الشعائر الدينية التي تتلخص بتنظيم البيت والطواف حوله والحج والعمرة والوقوف على عرفة ومزدلفة وإهداء البدن والإهلال بالحج والعمرة.

ولعلمهم ربطوا موعد إقامة الأسواق مع موسم الحج. وقد تعددت الأغراض فيها. بحيث كان فرصة للقاء الناس لفض منازعاتهم القبلية من دفع ديات، وفك أسر، وعقد حلف وجوار، أو خلع سفيه أو ثأر قاتل... فكان لانعقادها وجه اجتماعي ووجه أدبي ووجه اقتصادي وقد أثرت سوق عكاظ ومجنة وذوالمجاز وغيرها تأثيراً بعيداً في جميع الميادين، وكانت أساساً لإقامة علاقات إنسانية تحفظ حقوق الإنسان في إطار حياة القرن السادس الميلادي، وكانت تدور حول إصلاح المجتمع وباعتبار انهم أقاموا مقاماً للشعر فقد احتفلوا بنبوغ شاعر في القبيلة وأولموا الولائم. واجتمعت النساء يلعبن بالمرزهر تعبيراً عن فرجهن⁽¹⁶⁾. ولم يكتفوا بذلك فكانت أيام مسراتهم وأفراحهم بعودة أحدهم من السفر. وبشفاء واحد منهم من مرض، وكانوا أثناء فرجهم يشربون الخمر لأنهم اعتبروا أن الخمر من متع الحياة، وتقننوا بشربها. واستعملوا الأواني الذهبية في ذلك لتمييز الفئات الغنية عن الفقيرة.

(15) جامع الأصول ج4 ص 275، علي: المفصل ج5 ص 562، دروزة: عصر النبي وبيئته قبل البعثة ص 278.277.

(16) ابن رشيقي: العمدة ج1 ص 37، الالوسي: بلوغ الأرب ج3 ص 84، شريف مكة والمدينة. ص 26، حسن: حضارة ص 159، علي: المفصل ج9 ص 110-111.

ولقد شغل الحزن دورا كبيرا في الحياة. وكان الموت بنظرهم مفارقة الروح للجسد لسبب من الأسباب التي تؤول إلى هلاكه ويكون الإعلان عن موت شخص بالبكاء والنعي، ويتوقف هذا على قدر منزلة المتوفى ومكانة أهله الاجتماعية، وتضمنت الخاتمة ذكر لأبرز النقاط الأساسية في البحث.

دراسة المصادر والمراجع:

مصادر تاريخ الجاهلية العربية عديدة منها مؤلفات تتعلق بالشرعية الإسلامية، وهي تعد من المصادر الأساسية في عصر الجاهلية، ومؤلفات تتعلق بالأنساب، وأخرى بالأخبار والسير، وبعضها الآخر بالمعارف، وبعضها يتعلق بالشعر والشعراء، وكتب تبحث باللغة والمعاجم وكتب تتعلق بالجغرافية.

أولاً: كتب الشريعة الإسلامية: 1- القرآن الكريم:

مصدر تاريخي هام، وأقدم الموارد العربية المدونة لتاريخ العرب في الجاهلية، ولفترتها الأخيرة بخاصة، وهو أصدق المصادر المدونة على الإطلاق، لأنه تنزيل من الله تعالى لاسبيل إلى الشك في صحة نصه ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه⁽¹⁷⁾. فهو يصور لنا أحوال الحياة الجاهلية، ويتحدث لنا عن تفكير أهل الحجاز عند ظهور الإسلام. وردت فيه آيات تشير إلى نشاط العرب التجاري، ورحلاتهم التجارية وآيات تكشف عن التفاوت الاقتصادي والتمايز الاجتماعي، وبعض أشكال استثمار المرابين والأغنياء للفقراء والمستضعفين والإماء⁽¹⁸⁾. وانعكست فيه الظواهر الدينية على نحو ما انعكست فيه سائر ظواهر المجتمع العربي الجاهلي كظاهرة الوثنية

(17) حسين: في الأدب الجاهلي ص 68، فروخ: تاريخ الجاهلية ص 16.

(18) سورة المنافقون الآية 8، سورة هود: الآية 27، سورة المؤمنون: الآية 24-48، سورة الشعراء: الآية 34-111، سورة المائدة: الآية 57، سورة النور: الآية 33.

وعبادة الأصنام، وظاهرة اليهودية والنصرانية والحنفية وغيرها من الظواهر والعقائد الدينية⁽¹⁹⁾.

2 كتب التفسير:

وتعد ثروة تاريخية قيمة، تشرح بصورة مفصلة ما جاء مقتضبا في القرآن الكريم عن بعض الأحداث ومظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية في الجاهلية وعهد النبوة. ومن أشهر كتب التفسير: (تفسير الطبري (ت 310 هـ) المعروف باسم (جامع البيان عن تأويل أي القرآن) وهو تفسير تاريخي يحاول أن يفسر الآيات بذكر الأحوال التاريخية والاجتماعية التي رافقت نزولها، ولاغرو فالطبري في الأصل موعر. ثم إن الطبري يستعرض جميع الروايات الواردة في تفسير الآيات، روايات الحديث الشريف وروايات التاريخ وروايات الأدب، بعدئذ يفاضل بين تلك الروايات ويرجح ما يراه في نظره أقرب إلى الواقع مما لا يعارض نص الآيات، والطبري يسلك في التفسير مسلكا سلفيا فهو فقيه من أصحاب المذاهب الفقهية التي بادت فهو لذلك أقرب إلى ما تفرقه الرواية الصحيحة والواقع التاريخي⁽²⁰⁾.

ومن كتب التفسير التي عدت إليها أيضا تفسير ابن كثير الدمشقي (ت 774 هـ) وهو يقارب تفسير الطبري إن لم يكن يفوقه في بعض المسائل.

3- الحديث الشريف:

وهو أصدق وأهم المصادر بعد القرآن الكريم، يتضمن أحكاما وقوانين للمجتمع الإسلامي المتطور ويتحدث عن جوانب عديدة من أحوال أهل الجاهلية، وحياتهم وخاصة في الفترة المتصلة بظهور الإسلام ليست موجودة في مورد آخر⁽²¹⁾.

(19) سورة النمل: الآية 24 ، سورة فصلت: الآية 37 ، سورة النجم: الآية 19 - 49 ، سورة نوح: الآية 21 - 23 ، سورة البروج: الآية 4 - 9 ، سورة الجاثية: الآية 24 ، سورة الحج: الآية 17 ، سورة البقرة: الآية 135 ، سورة آل عمران: الآية 67 - 95 ، سورة النساء: الآية 125 ، سورة الأنعام: الآية 79 ، سورة يونس: الآية 105 ، سورة النحل: الآية 120 .

(20) فروخ: تاريخ الجاهلية ص 17

(21) علي: الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج 1 ص 67

تناولت كتب الحديث الحياة التي كانت جارية في ذلك الوقت وعرضت لكل ما كان قائماً من نظم الحياة الدينية والفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية فأقرت بما رأته صالحاً، وعدلت ما لزمه التعديل، ونهت عما رأته ضاراً أو فاحشاً في حياة الناس.

من أشهر كتب الحديث التي عدت إليها (الجامع الصحيح للبخاري وشروحه ت 257) و(صحيح مسلم ت 262 هـ) و(النهاية في غريب الحديث لابن الأثير المبارك بن محمد أبو السعادات مجد الدين ت 606 هـ) (22).

ثانياً: كتب الأخبار والسير

دفع اهتمام المسلمين بأقوال الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأفعاله للاهتمام بها والاعتماد عليها في التشريع الإسلامي (23). وفي النظم الإدارية المؤرخين الأول إلى الكتابة في سيرة الرسول وفي مغازيه ومغازي الصحابة (24)، وقد تعرضت كتب السيرة والمغازي لأخبار الجاهلية القريبة من الاسلام أو المتصلة بحياة النبي (صلى الله عليه وسلم)، لذلك تعد من المصادر الهامة لتاريخ العرب قبل الاسلام، وأشهر كتب الأخبار والسير سيرة النبي (صلى الله عليه وسلم) لأبي محمد عبد الملك بن هشام الحميري (ت 218 هـ) (25). وهو كتاب يؤرخ لسيرة النبي (صلى الله عليه وسلم)، وللعرب قبل الاسلام وقد اعتمد ابن هشام في سيرته على كتاب السيرة النبوية لأبي عبد الله محمد بن إسحاق (ت 151 هـ). تضمن كتاب السيرة لابن هشام معلومات عن أخبار الجاهلية تناولت نسب العرب الإسماعيلية. وشيئا عن الغساسنة والمناذرة، وتاريخ اليمن... وشذرا عن ولد نزار ومضر، وقصة عمرو بن لحي وأصنام العرب وأخبار عن أوابد هم وعاداتهم وأحلافهم وحروبهم، وبضعة فصول في عرب الحجاز،

(22) الزركلي: الأعلام ج 6 ص 152

(23) الدوري: بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ص 19-20.

(24) الدوري: بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، ص 19-20.

(25) ابن هشام: السيرة النبوية، ص 22

وتاريخ مكة إلى بيت عبد المطلب بن هاشم، فظهور النبي والإسلام، وتابع حديثه عن الرسول بعد الاسلام واصلاً ذلك إلى وفاة النبي (صلى الله عليه وسلم)⁰ الروض الأنف: للسهيلي (أبو القاسم بن عبد الله بن أحمد بن أبي حسن الخثعمي. ت 518 هـ). يدخل هذا الكتاب في إطار السيرة فقد ذكر فيه نسب الرسول وجده عبد المطلب، وحضر بئر زمزم⁰ وقصي بن كلاب ونشأته وانتقاله إلى مكة، وتأليف قبيلة قريش، وتنظيم مكة وبنائه دار الندوة، ثم ذكر الأحلاف وبكل ذلك صور لنا واقع حياة العرب، لكنه سلط الأضواء على قبيلة قريش ذاكرا كل ما يتعلق بها.

ثالثاً: كتب الشعر والشعراء

الشعر الجاهلي من أهم مصادر المعرفة عن حياة العرب في جاهليتهم، وهو يعبر عن عبقرية العرب، ومقدرتهم اللغوية وفصاحتهم التي فاخروا بها بقية الشعوب، والشعر ديوان العرب⁽²⁶⁾ والدليل على أحاديثها وأفعالها. والحاكم بينهم في الجاهلية، والشاعر جزء من المجتمع بكل ظروفه وتفاعلاته. وقد حفظت لنا الأشعار القديمة صوراً عن حياة العرب في الجاهلية في الجد واللهو، والحب والبغض، وفي أيام الخصب والرخاء وأيام القحط والبؤس. وفي أيام السلم والحرب وفي الزهد والتدين والترف والفجور فهو مرآة عكست صور حياتهم بكل تفاصيلها⁽²⁷⁾. لقد أفاد الشعر الجاهلي الصحيح منه والمنحول، المؤرخ الباحث في تاريخ الجاهلية فائدة ثمينة كمادة حية لها ارتباطها الواقعي الموضوعي بالواقع الاجتماعي العربي. من دواوين الشعر التي أفادت البحث ديوان امرؤ القيس، ديوان طرفة بن العبد، ديوان المشقب العبدي، ديوان عمرو بن كلثوم، وديوان النابغة الذبياني وديوان حاتم الطائي وديوان زهير بن أبي سلمى، وديوان الخنساء وديوان عنتره..... الخ

ومن أهم كتب الشعر التي أفادت البحث:

(26) الاصبهاني: الأغاني ج 1 ص 11، ابن رشيق: العمدة في صناعة الشعر ونقده ج 1 ص 11، أمين: فجر الاسلام ص 57.

(27) أمين فجر الاسلام ص 57، سالم: تاريخ العرب في عصر الجاهلية ص 40.

- المفضليات: (للمفضل بن محمد بن يعلى الضبي ت 178 هـ)

لعله أقدم مجموعة شعرية وصلت إلينا مما صنف في القرن الثاني الهجري، ولها منزلة كبيرة في الأدب العربي لميزاتها التي فيها وهي:

أنها لا تضم من الأشعار إلا ما كان قديما، فهي تحتوي على 130 قصيدة لستة وستين شاعرا، عاشوا وماتوا في الجاهلية ليس بينهم إلا عدد قليل من المخضرمين والإسلاميين الأوليين، وقد أثبتت هذه القصائد بتمامها، ولم يعمد المفضل إلى الاختيار والتفاضل بين أبيات القصيدة الواحدة، ومن ميزاتهما أيضا أن مصنفها كان أبدا موضع الاحترام، فلم يطلعن عليه أحد من معاصريه أو ممن جاء بعده في أمانته وصدقته، وفي هذه المجموعة صورة لشعر العربي القديم وهي اقرب إلى الصحة والكمال.

عرفتنا القصائد المتعددة على العادات والتقاليد التي كانت متبعة آنذاك كعادة الثأر مثلا، والفخر بالأنساب، إضافة إلى أنها أطلعتنا على الديار، ومساكن القبائل والأطلال فهي سجل تاريخي لما يدور بين القبائل.

الاصمعيات: (لأبي سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي ت 216 هـ)

وهي مجموعة قصائد يبلغ عددها اثنين وتسعين قصيدة بينها عدد من المقطوعات متممة للمفضليات من حيث تصوير واقع الشعر العربي القديم.

الشعر والشعراء: لابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم ت 276 هـ)

جعل ابن قتيبة كتابه عبارة عن تراجم عادية لا تخضع لأي نوع من التصنيف وإن كان يغلب عليها مراعاة الترتيب الزمني، وتقديم الجاهليين على المخضرمين على الإسلاميين، فهو كتاب تراجم شعراء، وليس كتاب طبقات إذ ترجم لكل شاعر بمفرده ذاكرة أخباره وأشعاره، وأقوال العلماء فيه، وأحواله في أشعاره وقبيلته، وأسماء آبائه وما يستجد في شعره، وما أخذ العلماء عليه من الغلط والخطأ في ألفاظه ومعانيه، وما سبق إليه المتقدمون فأخذ عليهم المتأخرون، وأخبر فيه عن أقسام الشعر وطبقاته وعن الوجوه التي يختار الشعر عليها ويستحسن لها وعلى بعض العادات والأعراف والمثل العربية وعلى دستور القبائل في العصبية والثأر وعلى الديار العربية والقبائل المتعددة.

رابعاً: كتب المعارف والأخبار

1 - أخبار مكة: للأزرقي (أبي الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد ت 223 هـ)

"إن هذا الكتاب يشبه من بعض الوجوه كتاب ابن هشام في السيرة النبوية، وذلك باشتراك أشخاص عديدين في تأليفه بيد أنه لا يشبهه من جهة كونه مختصراً من مجموعات كبيرة، بل بالعكس قد كان صغير الحجم ثم زيد عليه علاوات كثيرة وضم إليه مواد عديدة أدت إلى اتساعه⁽²⁸⁾ والحقيقة التي لا ريب فيها إن واضع الكتاب أخبار مكة أو بعبارة صريحة جامعة ومرتبته ومؤلفه هو محمد بن عبد الله الأزرقى رواية عن جده أحمد بن محمد الأزرقى وغيره من الرجال المعروفين. وكانت روايته عن جده أكثر من روايته عن غيره مما يدعونا للقول بأن المؤلف الأصلي للكتاب هو جده. وقد اختط الأزرقى لنفسه خطة سهلة سلسلة في تدوين كتابه هذا، وقسمه إلى بحوث وفصول مبوبة، وتوخى الإفاضة في ما يهم طلاب التاريخ والجغرافية والأدب، ويعد كتابه في طليعة المصادر القيمة التي لا يستغني عنها طالب العلم

يتحدث الكتاب عن الكعبة والبيت الحرام، وإسكان إسماعيل بن إبراهيم وأمه هاجر، وولاية خزاعة الكعبة، وولاية قصي بن كلاب البيت الحرام⁽²⁹⁾ وانتشار ولد إسماعيل وعبادتهم الحجارة ونصب الأصنام⁽³⁰⁾، وحج أهل الجاهلية وأنساء الشهور وتواريخهم ويتحدث عن حفر عبد المطلب بن هاشم لزمر⁽³¹⁾ وذكر أسماء أماكن كثيرة في مكة، وسيولها في الجاهلية والإسلام وأسماء بعض المساجد وصفاتها والآبار والعيون، وعرفنا على القبائل المتعددة التي سكنت مكة من خلال حديثه عن كل ذلك. وألحق الكتاب بملاحق خمسة تتحدث عن المسجد الحرام وعمارته وقبائه وحدوده والتوسعة التي أجريت عليه.

⁽²⁸⁾ الأزرقى: أخبار مكة ج 1 ص 15

⁽²⁹⁾ الأزرقى: أخبار مكة ج 1 ص 103

⁽³⁰⁾ الأزرقى: أخبار مكة ج 1 ص 117

⁽³¹⁾ الأزرقى: أخبار مكة ج 2 ص 42

2- المحبر: لابن حبيب (أبو جعفر محمد ت 245 هـ)

مؤلف هذا الكتاب كان عالماً بالأنساب وأخبار العرب واللغة والشعر والأدب، لذلك جاء كتابه معبراً عن ثقافته الموسوعية ويظهر ذلك في تنوع المواضيع التي حوّاها.. فقد حدثنا عن أخبار العرب في الجاهلية، قبائلهم وأنسابهم، فئاتهم وأحلافهم، ووصف لنا ملوكهم وحكامهم وأجوادهم ودهاتهم، ومواسمهم وأسواقهم وأديانهم وأصنامهم.

كما أورد لنا أخباراً خاصة بقبيلة قريش قل أن نجدها في مصادر أخرى ذكر لنا أشرافها وأصحاب الأيلاف منها، وذكر زنا دقتها وفضلاءها، النساء منها والندماء، قبائل قريش البطاح وقريش الظواهر، كما توسع أكثر وحدثنا عن الإسلام وخاصة النبوة، كما أورد لنا أخباراً عن الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين، وحوى بين طياته أيضاً أخباراً متفرقة عن الأنبياء. ولم ينس ذكر المرأة فحدثنا عن أخبارها في الجاهلية والإسلام⁽³²⁾. وكان يسوق معلوماته دون فصل بينها فاختلط بعضها ببعض إذ كان منهجه أن يسرد الموضوع ثم يدخل في غيره ثم يعود إليه فيختلط الأمر على القارئ ولكن ذلك لا يضعف من قيمته العلمية فهذا التنوع في المعلومات أغنى الكتاب بالمعارف الهامة.

3- الحيوان: للجاحظ (عمرو بن بحر ت 255 هـ)

يوهم هذا الكتاب من اسمه أنه خصص للحيوان، ولكنه تناول طائفة من المعلومات الخاصة بالبلدان، وبعض قضايا التاريخ عند العرب في الجاهلية كتدوين المعاهدات والمحالقات⁽³³⁾، ومراسم الأحلاف، ونار الحلف، وأنهم كانوا يتحالفون على الملح والكبريت ويوقدون نارا خلف المسافرين وشيئاً من عاداتهم وتقاليدهم.

4- البيان والتبيين:

(32) ابن حبيب: المحبر: ص 402 - 403

(33) الجاحظ: الحيوان: ج 1 ص 69.

من أشهر كتب البلاغة وأكبرها، أرسل الجاحظ نفسه على سجيته فيه، فلم يتقيد بنظام محكم يرسمه، ولم يلتزم نهجا مستقيما يحذوه، ولذلك نراه يبدأ الكلام في قضية من القضايا ثم يدعها في أثناء ذلك ليدخل في قضية أخرى، ثم يعود إلى ما أسلف من قبل، وقد كانت هذه سبيل كثير من علماء دهره، كما إن علوسنه وجده التأليف في تلك الأبحاث التي طرقها كل هؤلاء، كان شفيعا له في الاسترسال والانطلاق. وكان الجاحظ يشعر بذلك، ويعتذر عنه أحيانا، فهو يقول عند الكلام على البيان ((وكان في الحق ان يكون هذا الباب في أول الكتاب ولكننا أخرناه لبعض التدبير))⁽³⁴⁾. كانت مباحث الكتاب وقضاياها في البيان والبلاغة والقواعد البلاغية والقول في مذهب الوسط، وبالخطابة والشعر والأسجاع. ثم قدم نماذج من الوصايا والرسائل وطائفة من كلام النساك والقصاص وأخبارهم ثم عرض لبعض كلام الحمقى ونواديرهم، وضروب من الاختيارات البلاغية.

5- المعارف: لابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم ت 276هـ)

هو كتاب ثقافة رفيعة، واحاطة بأسباب المعرفة على تعداد موضوعاتها في أخبار العرب وأنسابها وأديانها، مستقاة من مختلف ينابيعها، مختارة احسن الاختيار، مبنية أجمل التبويب تسوق الطرف والنوادر على نهج محب شائق وهولا يلتزم الترتيب الهجائي في عرض موضوعاته، إنما يتناول موضوعات واسعة يقسم كل منها إلى أقسام أصغر متخذا الوحدة الموضوعية أساسا بصرف النظر عن الترتيب الهجائي. استفاد ابن قتيبة في كتابه من مصادره مكتوبة وروايات شفوية وسلك سبيل انتقاء معلوماته التاريخية بعد نقد مصادره، وكان من أوائل من رجع إلى العهد القديم ليأخذ منه مباشرة عن بدء الخليقة وعن تاريخ الأنبياء، تتميز مادته التاريخية بالحياد والتأكيد على الحقائق⁽³⁵⁾.

6. تاريخ اليعقوبي:

(34) الجاحظ: البيان والتبيين ج 1 ص 76.

(35) البوري: بحث في نشأة علم التاريخ ص 54

لليعقوبي (أحمد بن إسحاق بن جعفر بن واضح العباسي ت 284هـ). هذا الكتاب موجز تاريخي منظم يتناول التاريخ العالمي منذ بدء الخليقة، فقد خصص القسم الأول من الكتاب لتاريخ ما قبل الاسلام مبتدئا بقصة التوراة، قام بتنظيمه على أساس التعاقب الزمني للشخصيات كالأنبياء والملوك ثم وصف الأناجيل الأربعة وفيه يحل اليعقوبي التاريخ الثقافي محل التاريخ السياسي ثم يبحث في بعض المواضيع ككتب أر سطو وأبقراط ودخول الشطرنج والشعراء الجاهليين ويرجع في ذلك إلى المصادر الأصلية.

7- تاريخ الرسل والملوك:

للطبري (محمد بن جرير، ت 310 هـ) يعتبر الطبري عمدة المؤرخين حتى عصره، وقد ألف كتاب الرسل والملوك واشتهر بذاكرته القوية، ودأبه الذي لا يكل في جمع الأخبار التي تتصل بالبشر منذ خلق آدم حتى عصره على ترتيب السنين سواء كان بالرواية الشفوية أو من كتب المتقدمين أمثال ابن إسحاق وأبي مخنف والواقدي والمدايني. ترجع قيمة الكتاب إلى أنه قد استطاع أن يجمع بين دفتيه جميع المواد المودعة في كتب الحديث والتفسير واللغة والأدب والسير والمغازي وتاريخ الأحداث والرجال ونصوص الشعر والخطب والعهود ونسق بينها تنسيقا مناسباً وعرضها عرضاً رائعاً مناسباً لكل رواية إلى صاحبها، وكل رأي إلى قائله، مبدياً حياداً واضحاً تجاه الروايات⁽³⁶⁾ ولم يمل مع أي هوى في إيراد الأخبار التاريخية وكان حياده في الغالب عن ورع ودقة علمية وقد أهمل عصره⁽³⁷⁾.

أضف إلى ذلك أنه أودع كتابه فصولاً صالحة ونتفاً متنوعة من متون الكتب التي أتت عليها عوادي الأيام، وأورد من أقوال العلماء مالا نجده إلا في هذا الكتاب.

8- العقد الفريد:

لابن عبد ربه (أبو عمر أحمد بن محمد ت 327 هـ) وهو عبارة عن موسوعة أدبية علمية اجتماعية تاريخية ينقسم إلى خمسة وعشرين باباً يتناول كل منها موضوعاً

(36) الدوري: بحث في نشأة علم التاريخ ص 56

(37) مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون - ج 1 ص 256

من المواضيع كالسلطان والحروب والنسب وتواريخ الخلفاء، وأيام العرب والمواظف والتعازي والمراثي، وفصائل الشعر وعلل القوافي، والطبائع والنساء، والأطعمة، والاشربة والفكاهات والملح وغيرها. وفي كل باب من هذه الأبواب يختلط التاريخ بالأدب باللغة بالنحو والعروض، بالتقاليد والعادات الاجتماعية والظاهرة الهامة في هذا الكتاب حذف الإسناد طلباً للتخفيف وهرباً من التلويل.

9- مروج الذهب:

للمسعودي (علي بن الحسن ت 346 هـ) تضمن الكتاب أخباراً عن الخلق ، وقصص الأنبياء ، وأقوام العرب البائدة وذكر مكة وأخبارها والأقوام التي تغلبت عليها ، ولما من اليمن وأنسابها وملوكها ، وذكر ملوك الحيرة من اليمن وأخبارهم ، وملوك الشام من الغساسنة وغيرهم ، وما كان من أخبارهم ، وأخباراً عن ديانات العرب وآرائها في الجاهلية وتفرقها في البلاد ، وقصة أصحاب الفيل ، وذكر بيت عبد المطلب ، وأخباراً عما ذهب إليه العرب في النفوس والهام والصفير . وأقاويل العرب في التغول والغيلان ، وما قاله غيرهم من الناس في ذلك ، وأقاويل الناس في الهواتف والجان من العرب وغيرهم ، وأخباراً عما ذهب إليه العرب من القيافة والعيافة والزجر والسانح والبارح وغير ذلك وذكر الكهانة وجمالاً من أخبار الكهان وقصة سيل العرم ، وما خلفه من آثار اقتصادية واجتماعية ، وديموغرافية ، وبحث في التقويم ، وذكر أخباراً عن البيوت المعظمة ، والهاكل المشرفة وبيوت النيران والأصنام ، وعبادات الهند وذكر الكواكب⁽³⁸⁾ وغير ذلك من الأخبار . وقد انتهى من كتابه عام 332 هـ وأعاد النظر فيه عام 245 هـ⁽³⁹⁾ .

10- الأغاني:

للأصبهاني (أبي الفرج علي بن الحسين ت 356 هـ) وهو من أشهر كتب الأدب في القرن الرابع الهجري ، وأحفلها بالمعارف فهو موسوعة أدبية قديمة تعترض بها مكتبتا العربية ، غزيرة المادة ، متنوعة الموضوعات ، وهو أوسع مصدر نملكه في تراجم شعراء العربية حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، وقد كان غرض المؤلف الأول من كتابه إنما هو تثبيت أشهر أغاني عصره بكلماتها وألحانها ، ومن هنا جاء العنوان الذي اختاره المؤلف لكتابه ، ولكن ذلك لا يخفي حقيقة ما تنطوي عليه مادته من قيمة وفائدة خاصة في ميدان الأخبار والشعر ، ففي هذا الكتاب ما يقرب من

(38) المسعودي: مروج الذهب، ج 1 ص 38 وما بعد .

(39) المسعودي: مروج الذهب ج 1 ص 1 ، نور الدين حاطوم: المدخل إلى التاريخ ص 298 ، على خلاف في تاريخ الانتهاء من كتابته فقد ذكر حاطوم انه انتهى من كتابته عام 330 هـ .

خمسمائة ترجمة لخمسمائة شاعر وشاعرة عاشوا في الجاهلية، وصدر الاسلام، والعصر العباسي الأول، وهذه التراجم غزيرة المادة تحتوي على قسط وافر من الأخبار. روى أبو الفرج أخباره مرفقة بالأسانيد المطولة ويشير إلى مصادره المكتوبة في كثير من الأحيان، وكل من يتصفح هذا الكتاب لا بد له أن يقدر الجهد الذي بذل في تصنيفه، ويقتنع بأن مؤلفه لم يكن يغالي كثيرا حين زعم أنه انفق خمسين عاما من حياته في جمع مادة كتابه، وأنه كتبه مرة واحدة في عمره وهي النسخة التي أهداها إلى سيف الدولة بن حمدان فأعطاه ألف دينار⁽⁴⁰⁾.

11 - الكامل في التاريخ:

لابن الأثير (أبي الحسن علي بن عبد الواحد الشيباني ت 630 هـ). وهو المؤرخ الذي تحرى الأخبار، ورتبها كالطبري مشيرا إلى تلخيصه للتاريخ الكبير للإمام أبي جعفر الطبري، وكيف عدله بالزيادة والنقصان إلا ما يتعلق بما جرى بين أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم فإنه لم يضيف إلى ما نقله أبو جعفر شيئا⁽⁴¹⁾.

رتب كتابه على نظام الحوليات، وبدأها بالكلام عن تاريخ البشرية منذ أول الخليقة إلى آخر سنة 628 هـ، وهو يحتوي مادة قيمة لتاريخ الجاهلية والاسلام.

12 - اسد الغابة في معرفة الصحابة:

جمع ابن الأثير مادة كتابه معتمدا على من سبقه في هذا المجال ناقلا من كلام كل واحد منهم أجوده وما تدعوا الحاجة إليه طلبا للاختصار، ورتب ذلك على حروف المعجم⁽⁴²⁾، فأتى الكتاب أشبه بقاموس أبجدي لتاريخ الصحابة الذين أقاموا مع الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد بلغ عدد من ترجم لهم سبعة آلاف وخمسمائة صحابي. ولا يخلو كتابه من ذكر الأسانيد فقد عقد فصلا لهم ضمنه أسانيد الكتب⁽⁴³⁾، وفصلا ذكر فيه من يطلق عليه اسم الصحبة⁽⁴⁴⁾. بدأ الترجمة بذكر

(40) الاصبهاني: الأغاني، ج 1 ص 32 تصدير.

(41) ابن الأثير: الكامل في التاريخ: ج 1 مقدمة الكتاب ص 3.

(42) ابن الأثير: اسد الغابة في معرفة الصحابة ج 1 ص 5.

(43) ابن الأثير: اسد الغابة ج 1 ص 7 وما بعد.

(44) ابن الأثير: اسد الغابة ج 1 ص 11 - 12

سيدنا رسول الله صلى عليه وسلم، وكان حين تقديم الترجمة يعطينا فكرة عن عمل كل منها، فمثلا عند كلامه عن الأخنس بن شريق عرفنا انه حليف بني زهرة ومقدما فيهم، ولماذا لقب بالأخنس وتاريخ وفاته⁽⁴⁵⁾.

13 - الدرة الثمينة في أخبار المدينة:

لابن النجار (الشيخ محمد بن محمود ت 647 هـ). وهو كتاب عظيم الفائدة كبير النفع يحتوي على كثير من المعلومات التاريخية، قسمه مؤلفه إلى ثمانية عشر بابا، ذكر خلالها المدينة وأول من سكنها، وسكن اليهود بالحجاز، ونزول الأوس والخزرج وبعض المعالم الجغرافية للمدينة، والكثير من المواضع والأماكن.

14 - البداية والنهاية لابن كثير

"عماد الدين إسماعيل بن عمر ت 774 هـ" للكتاب أهمية تذكر يعتمدها الباحثون في دراسة التاريخ القديم منذ بدء الخليقة حتى مبعث الرسول صلى الله عليه وسلم، إلى تاريخ الاسلام منذ قيام الدعوة الإسلامية حتى منتصف القرن الثامن الهجري. معتمدا البعد عن الإسرائيليات إلا ما أذن الشارع في نقله مما لا يخالف كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم⁽⁴⁶⁾. واعتمد الطريقة الحولية فيه منذ الهجرة النبوية وكان يربط بين الأحداث وإن لم تته في سنة واحدة ويتابع الحدث إلى نهايته.

15 - شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام:

للفاسي (أبي الطيب تقي الدين محمد بن أحمد بن علي ت 775 هـ). دون هذا الكتاب أخبار مكة بتفصيل كثير واحاطة شاملة، واستيعاب دقيق، وهو من المصادر الأصلية عن مكة بعد كتاب الأزرق في أخبار مكة. عرض لأخبار قريش بمكة في الجاهلية، وأخبار بني قصي ومآثرهم في الجاهلية، وأجواد قريش وحكامهم في الجاهلية، وتحدث عن الأصنام التي كانت حول مكة وأخبار أسواق العرب في مكة في الجاهلية والاسلام.

(45) ابن الأثير: أسد الغابة ج 1 ص 47- 48

(46) ابن كثير: البداية والنهاية، دار الفكر ج 1 ص 6

رتبه على أربعين بابا، ألم فيه بجميع ما يتصل بتاريخ مكة من قريب أو بعيد منذ الجاهلية حتى عصره.

16 - العبر وديوان المبتدأ والخبر: لابن خلدون (عبد الرحمن بن زيد ت 808 هـ)

يحتوي الكتاب على أخبار العرب والشعوب الأخرى وبخاصة البربر، وتحتل مقدمة هذا الكتاب مكانة خاصة في تاريخ الدولة العربية، فقد فلسف ظروف المجتمع العربي منذ نشأته، وتتبع تطوره، وقد كتب مقدمته بالأصل كمقدمة لكتابه التاريخي ولتكون شرحا وتمهيدا تفهم حوادث التاريخ على ضوءها، وقد وصف بحثه الجديد أنه علم مستقل بذاته له موضوع خاص وهو العمران البشري والاجتماع الإنساني⁽⁴⁷⁾.

قسم كتابه إلى مقدمة في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والاماع بمغالط المؤرخين. وثلاث كتب: الأول في العمران والثاني في أخبار العرب وأجيالهم ودولهم منذ مبدأ الخليقة إلى عهده، والكتاب الثالث في أخبار البربر ومواليهم من زناته⁽⁴⁸⁾.. أشار إلى قواعد النقد التاريخي، وشكك في صحة الأنساب التي كثيرا ما ترفع إلى إسماعيل وإبراهيم ونوح بل وإلى آدم أبي الإنسانية، وشكك أيضا في تفاسير التوراة وتأويلاتها⁽⁴⁹⁾.

17 - صبح الأعشى في صناعة الانشا:

للقلقشندي (أبي العباس أحمد بن علي ت 821 هـ).

كتاب جليل القدر، عظيم النفع، كبير الفائدة بين للقلقشندي لنا فيه حالة اللغة العربية وكيف كانت في العصور الأولى قبل الاسلام إلي أن وصلت إلى ما وصلت إليه من الانتشار بعد أن صارت لغة القرآن الكريم ولغة الشريعة الإسلامية والدين الحنيف، وكيف زهت في عصور الخلفاء من بني أمية وبني العباس، وغزرت مادتها، واتسع نطاقها ودنا قطافها.

(47) حاطوم: المدخل إلى التاريخ ص 314.

(48) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، المقدمة ص 6.

(49) ابن خلدون: العبر ج 2 ص 6

وبين لنا الكتابة العربية في البلاد والممالك الإسلامية وما بلغته من درجات الرفعة والارتقاء، ثم ما آلت إليه بعد ذلك من الضعف والوهن تبعاً لضعف اللغة العربية باستيلاء المغيرين على بلاد الخلفاء وممالكهم، ممن ليسوا من أهلها في اللغة والدين، كما بين لنا طبقات الكتاب وأهل الأدب وما كان لهم عند الملوك من الرعاية وعظيم الاحترام.

وبين لنا فيه الخلافة الإسلامية وشروطها ورسومها ومن وليها، والممالك الإسلامية في المشرق والمغرب وما بلغته من درجات المجد والحضارة، وحدودها وأنظمتها ورسومها وأثارها، وأخبرنا عن البلاد المصرية وفضائلها ومحاسنها وخواصها وعجائبها وما فيها من الآثار.

دون في هذا الكتاب عدة كتب أدبية نفيسة بتمامها، وجمع فيه كثيراً مما تفرق في غيره من المؤلفات.

رتبه على مقدمة وعشر مقالات وخاتمة، فلم يدع صغيرة ولا كبيرة إلا ذكرها، ولم يغادر شاردة ولا واردة إلا أحصاها فصار كتابه لذلك كتاب سير وتاريخ ولغة وأدب وفقه وتفسير للقرآن الكريم وشرح للأمثال والحكم العربية وبسط لنظام الحكومات عامة والحكومة المصرية خاصة⁽⁵⁰⁾. فهو على العموم دائرة معارف كبرى.

خامساً: كتب الأنساب

1- جمهرة النسب لابن الكلبي: (هشام أبو المنذر محمد بن السائب ت 204 هـ) اقتفى ابن الكلبي خطوات والده محمد بن السائب فقد كان عالماً بالأنساب، غير أنه تفوق على والده، وصار في طليعة الباحثين في الدراسات الأثرية عند المسلمين برجوعه إلى الأصول واعتماده على المراجع التاريخية وقد نهج في طريقة كتابته نهجاً قريباً من منهج المؤرخين في تدوينهم التاريخ⁽⁵¹⁾. تعود أغلب معارفنا عن فترة الجاهلية الأخيرة إليه. فهو يتناول أنساب العرب والقبائل العربية وتفرعاتها من عمائر ويطون وأفضاخ ذكر الطبري عن أبي المنذر هشام قوله "وقد حدثت عن هشام بن محمد

(50) للقلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الانشاء، ج 1 ص 18 مقدمة.

(51) علي: الفصل في تاريخ العرب ج 1 ص 88.

الكلبي انه قال كنت: استخرج أخبار العرب وأنساب آل نصر بن ربيعة، ومبالغ أعمار من عمل منهم لال كسرى، وتاريخ سنيهم في بيع الحيرة، وفيها ملكهم وأمورهم كلها⁽⁵²⁾. وبهذا يكون قد انفرد دون غيره في هذه الناحية.

2- نسب قريش للمصعب الزبيري: (عبد الله المصعب بن عبد الله ت 236 هـ) يقع الكتاب في اثني عشر جزءا على أطوال متباينة بعض الشيء، ولكن هذا التقسيم مصطنع لأننا لا نجد فيه جزءا مستقلا بنفسه، وكل جزء يبدأ بالأسانيد نفسها.

وقد عرفنا على نسب قريش رجالها ونسائها، وكان يورد في كل صفحة حكايات تتعلق بالجوانب التاريخية والاجتماعية.

3- جمهرة نسب قريش وأخبارها: للزبير بن بكار (عبد الله ت 256 هـ) وهذا الكتاب كسابقه يختص بنسب قريش، وأثناء سياقه للنسب يورد بعض الأخبار الموجزة والمختصرة، وفي ذلك دليل على أن الزبير إنما أراد بأخباره تصوير الشخصية ومعاليم حياتها في إطار النسب، فأصبح نسب البطن من بطون قريش ينبض بالحياة حتى كدنا نرى المذكورين في نسبه أحياء يغدون ويروحون، ولكل امرئ منهم سمة صريحة الدلالة على شخصيته. وقد ضمن الكتاب شعر كثير، وهذا خليق أن يضفي تاريخ هذه الفترة فنزاد علما بالوثائق النافعة في الاستدلال على الحياة الاجتماعية.

4- أنساب الأشراف: للبلاذري (أحمد بن يحيى ت 279 هـ)

الكتاب فائدة عظيمة فهو من جهة كتاب نسب، ومن جهة أخرى كتاب أخبار وتاريخ واستقصاء وشرح، لهذا لا نعجب حينما نرى تعدد أسمائه لدى الناقلين منه بعده: فعنوان الكتاب المخطوط أنساب الإشراف، في حين أنه قد كتب في آخره ما يأتي: هذا آخر ما صنفه أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري من جمل أنساب الأشراف وأخبارهم⁽⁵³⁾.

(52) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج 1 ص 628.

(53) البلاذري: أنساب الأشراف، ص 18 من مقدمة الكتاب.

إذا في ثنايا الكتاب أخبار اقتصادية واجتماعية وسياسية مفيدة للمؤرخ
او الباحث في تدوين أخبار الجاهلية الأخيرة.

5 - جمهرة أنساب العرب: لابن حزم الأندلسي (أبومحمد علي بن أحمد ت
456هـ).

وهو كتاب واسع في النسب أشار فيه إلى أنساب العرب وأهم الأحداث التاريخية
والقبلية والأدبية، وأيام العرب المشهورة والمشهور من أمثالها وأبنائها. مع التحقيق في
ذلك كله، وبيان الخلاف فيه مع الحكم الصادق، وبذلك نأى في كتابه عن
الجفاف واليبوسة التي يعانها الناظر في كتب الأنساب⁽⁵⁴⁾. وفي خاتمة كلامه عن
النسب عقد فصلا عن ديانات العرب وأصنامها⁽⁵⁵⁾.

6 - قلائد الجمان في التعريف بقبائل الزمان: للقلقشندي (أبي العباس أحمد بن
علي ت 821 هـ).

يضم الكتاب مقدمة ومقصد وخاتمة يذكر في المقدمة أمور يحتاج إليها في علم
الأنساب ومعرفة القبائل وفيها خمسة فصول: الفصل الأول في فضل علم الأنساب
ومسبب الحاجة إليه. والفصل الثاني في بيان من يقع عليه اسم العرب القديمة التي
منها درجوا إلى سائر الأقطار، والفصل الخامس في أمور يحتاج إليها الناظر في علم
الأنساب، أما المقصد فقد حوى تفاصيل لمعرفة أنساب العرب، وفيه فصلان الفصل
الأول في ذكر عمود النسب النبوي على صاحبه أفضل الصلاة والسلام، وما يتفرع
عنه من الأنساب⁽⁵⁶⁾. والفصل الثاني في ذكر تفاصيل القبائل وما يتسر ذكره من
مساكنهم إلى الآن⁽⁵⁷⁾.

وتضمنت الخاتمة نبذة من أوصاف المقر الأشرف الناصري المؤلف له هذا
الكتاب ومناقبه ونبذه من سيرته الغراء.

(54) ابن حزم الأندلسي: جمهرة أنساب العرب. من مقدمة الكتاب.

(55) ابن حزم الأندلسي: جمهرة أنساب العرب ص 491 - 494

(56) القلقشندي: قلائد الجمان - ص 25

(57) القلقشندي: قلائد الجمان ص 36

7 - سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب للبغدادي السويدي (أبي الفوز محمد أمين ت 1246هـ⁽⁵⁸⁾).

أوصل البغدادي في كتابه آخر القبائل بأوائلها بخطوط تمتد من الآباء إلى الأبناء. واضعاً كل اسم ضمن دائرة تحيط به، وقد ابتدأ الأنساب من آدم أبي البشر، ورتبه على ثلاثة عشر باباً ذاكراً فيها علم الأنساب وفائدته وطبقات الأنساب، ومساكن العرب القديمة التي درجوا منها إلى سائر الأقطار وعرفنا على بعض أنساب العرب والترك والروم والسودان، وبعض القبائل التي اختلف فيها هل هي من العرب أو من غيرهم، ولم ينس ذكر ديانات العرب قبل الإسلام، وفي نهاية الكتاب عقد فصلاً لنيران العرب في الجاهلية وفصلاً ذكر فيه أسواق العرب المعروفة فيما قبل الإسلام⁽⁵⁹⁾.

سادساً: كتب الجغرافية

1 - صفة جزيرة العرب للهمداني (أبو محمد الحسن بن أحمد ت 334 هـ) أشهر مؤلفات الهمداني بعد الإكليل⁽⁶⁰⁾، يصف فيه الجزيرة العربية ذاكراً أسماء بلادها وأوديتها وجبالها والكثير من معالمها الجغرافية. وما اشتهرت به هذه المواضع، وينقل أسماء القبائل التي أقامت في تلك المواقع. إلا أنه عندما يكتب عن اليمن فإنه يكتب عن رؤية ومعرفة⁽⁶¹⁾. أما عندما يكتب عن الأجزاء البعيدة عن اليمن فيكتب عن نقل ولهذا جاءت أخباره عن اليمن أقرب للواقع.

2 - معجم البلدان لياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله ت 626 هـ) قسم ياقوت كتابه إلى ثمانية وعشرين كتاباً على عدد حروف المعجم ثم قسم كل كتاب إلى ثمانية وعشرين باباً للحرف الثاني للأول والتزم ترتيب كل كلمة منه على أول الحرف وثانيه وثالثه... والغرض من هذا الترتيب تسهيل طريق الفائدة من

⁽⁵⁸⁾ الزركلي: الأعلام ج 6 ص 267.

⁽⁵⁹⁾ البغدادي السويدي: سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب.

⁽⁶⁰⁾ الهمداني: صفة جزيرة العرب - ص 31 من المقدمة.

⁽⁶¹⁾ الهمداني: صفة جزيرة العرب ص 18 من المقدمة.

غير مشقة وقبل إن يفعل ذلك عقد خمسة فصول في ذكر صورة الأرض. وفي وصف الاختلاف في الاصطلاح على معنى الأقليم. وفصل في ذكر الفاظ يكثر تكرار ذكرها في الكتاب يحتاج إلى معرفتها كالبريد والفرسخ والميل والكورة... ثم فصل في بيان حكم الأرضيين والبلاد المفتحة في الاسلام، ومن ثم جمل من أخبار البلدان⁽⁶²⁾. وكان أثناء حديثه عن البلد يذكر اسم القبائل وبعض المعلومات التاريخية والأدبية مؤيدا ذلك بأبيات من الشعر.

سلباً: المعاجم

1 - مجمع الأمثال للميداني (أبو الفضل أحمد بن محمد ت 518) ذكر الميداني في كتابه الأمثال العربية وأمثال المولدين مرتبة على حروف المعجم، ذاكراً صاحب المثل، والقصص والأسباب التي توضح الغرض من قوله، وجعل قسماً خاصاً لأيام العرب ثم جعل باباً لكلام النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين فجاء الكتاب وافياً كافياً ومصدراً هاماً في مجاله، لأنه يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية⁽⁶³⁾.

2 - لسان العرب لابن منظور: (أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ت 711هـ) القاموس العربي في الحقيقة يجمع المفردات اللغوية والمعارف الجغرافية والتاريخية والعلمية والفنية. فلسان العرب كتاب لغة ونحو وصرف وفقه وأدب وشرح للحديث الشريف وتفسير القرآن الكريم⁽⁶⁴⁾.

3 - تاج العروس للزبيدي: (محمد مرتضى الحسيني ت 1205 هـ) كل من يقرأ في التاج يرى مقدار الجهد الذي بذل في تأليفه ويشهد بفضل مؤلفه وسعة اطلاعه ورسوخ علمه، وكان مرجعه في ذلك الكثير من الكتب أولها لسان العرب، وقد جاء الكتاب واضح المنهج سهل السلوك وهو وإن كان قد نقل عن اللسان،

(62) ياقوت: معجم البلدان ص 15.

(63) الميداني: مجمع الأمثال - ج 1 ص 6

(64) ابن منظور: لسان العرب، ج 1 ص 6

والكثير من الكتب إلا أنه انفرد ببعض الشواهد والأقوال وقد ذكر "ولم آل جهداً في تحري الاختصار وسلوك سبيل التنقية والاختيار، وتجريد الألفاظ عن الفضلات التي يستغني عنها في حط اللثام عن وجه المعنى عند ذوي الأفكار"⁽⁶⁵⁾.

أما المراجع الحديثة فكان لا بد لي من العودة إليها خاصة أنها تعتمد في كتابتها على التحليل والتفسير، واتباع قواعد المنهج الحديث للتاريخ. وذلك للاطلاع على أهم الآراء والنظريات والأفكار التي قيلت في الحياة الاجتماعية، ولم تكن هناك مراجع متخصصة بالموضوع مباشرة، إنما كانت قريبة منه، أوتبحث في أحد جوانبه، أوتلقي ضوءاً هاماً على إحدى زواياه، ومن خلالها تمكنت من متابعة الموضوع، رتبت هذه المراجع على قسمين: القسم الأول يبحث في المعارف العامة وهي.

1 - بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب مؤلف من ثلاث أجزاء للمؤلف محمود شكري الألوسي البغدادي بدأ كتابه بتعريف الجاهلية ومن ثم تحدث عن شجاعة العرب ووفائهم ومساكنهم التي درجوا منها وأشرف قريش في الجاهلية والاسلام وانتقل إلى ذكر الأسرة وبناتها وانحلالها، وانتقل إلى أديان العرب قبل الاسلام.

2 - المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام لجواد علي يتألف الكتاب من عشرة أجزاء يبحث في أوضاع العرب في الجاهلية مبيناً أثر البيئة الصحراوية في شبه الجزيرة العربية على سكانها ونمط مجتمعهم وبيئتهم.

3 - تاريخ العرب في عصر الجاهلية لعبد العزيز سالم قسم الكتاب على أبواب متعددة الباب الأول دراسة تمهيدية، والباب الثاني عن عرب الجنوب والباب الثالث عن الدويلات العربية على تخوم الشام والعراق أما الباب الرابع فيبحث في حواضر الحجاز مكة والمدينة والطائف والباب الخامس خصصه للتحديث عن الحياة الاجتماعية والدينية واختتم الكتاب بالتمهيد لظهور الاسلام. ويدخل في إطار القسم الأول: العرب في العصور القديمة ليحيى لطفي عبد الوهاب. تاريخ العرب قبل الاسلام لسعد زغلول عبد الحميد تاريخ الجاهلية لعمر فروخ، والعرب قبل الاسلام لجرجي

(65) الزبيدي: تاج العروس، ج 1 ص 9 مقدمة الكتاب.

زيدان وتاريخ العرب القديم لتوفيق برووغير ذلك من المراجع. أما القسم الثاني:
فيختص في ناحية معينة من البحث:

- 1 - الزواج عند العرب في الجاهلية والاسلام لعبد السلام الترماني يبحث في أنواع الزواج وبناء الأسرة وانحلالها ولم يترك شيئاً يتعلق بالأسرة إلا وتطرق اليه كالحمل والإرضاع وتسمية الأولاد والختان... الخ
- 2 - أسواق العرب لسعيد الأفغاني
- 3 - أيام العرب لجاد المولى.
- 4 - الصناعات والحرف عند العرب في العصر الجاهلي لواضح الصمد.